مجلة جامعة الملك سعود، م ٣، العلوم التربوية (١)، ص ص ٦٥ - ٨٥ (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

التبـايـن فـي الطبيـعـة والفـــن

محيي الدين طرابيـــة

أستاذ مساعد، قسم التربية الفنية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. عندما يوجد أي اختلاف أو تفاوت بين عنصرين أو أكثر في صفة مشتركة بينهما، فإن ذلك يعني وجود درجة من درجات التباين بين هذين العنصرين. ولما كانت المظاهر الكونية على اختلاف أشكالها لا تخلو من وجود الفوارق بين مكوناتها. فإن ذلك يشير إلى وجود التباين في كل الوجود، إنه يتضمن كل ما تتسم به المدركات الحسية من صفات.

ويشكل التباين أهمية بالغة في تحقيق عمليات الإدراك الحسي مما يساعد الكائن الحي في تيسير سبل التكيف والتعامل مع متطلبات الحياة.

ولما كان الفن التشكيلي لا يخرج عن كونه فنًّا مرئيًّا، فإن إدراكنا البصري للعمل الفني لا يختلف عن إدراكنا لأي مجال مرئي آخر، لأن العمل الفني في حقيقته كائن يدرك كغيره من المدركات الأخرى. ولذلك فإن التباين في الفن لا يختلف عن التباين في أي مدرك نتعامل معه في الحياة بمختلف مظاهرها.

وإذا كان التباين في الفن لا يتأتى إلا عن طريق الفنان فهو الذي يسعى إلى تحقيقه فلابد للمهتمين بالفنون التشكيلية من معرفة طبيعة التباين في الفن وأهم الطرق التي يمكن اتباعها لتحقيقه وتوظيفه بشكل جيد في تشكيل ما يبدعون من فن.

مـقـدمـــــة

خلـق الله الكون بمن فيه فهو خالق كل شيء، ومن عجائب صنعه سبحانه وتعالى أن جعل لكل عنصر من مكونات ذلك الكون شكلاً خاصًا أو هيئة معينة تميزه عن غيره من العناصر

الكـونية الأخـرى. ولم يكن ذلـك التمايز قائمًا بين العناصر ذات الطبيعة المرئية المتباعدة فحسب، ولكنه قائم أيضًا بشكل واضح بين مجتمع العنصر الواحد، فأفراد الجنس البشري الذي يملأ الكون وينتشر بين أرجائه مختلفون فيما بينهم ليس في طول القامة أو في لون البشرة أو في الهيئة العامة ولكنهم مختلفون أيضًا في طبيعة الصوت وفي ملامح الوجه، وهذا الاختلاف في الملامح بين هيئات البشر جميعًا إنما يحقق بينهم نوعًا من التباين الذي يجعل لكـل إنسـان شخصية متميزة. ولم يكمن التبـاين بين أفـراد العنصر البشري في تلك الاختـلافـات فحسب، وإنـما يظهر التباين واضحًا في مكونات جسم الإنسان الواحد، فالعينان والأذنان والرجلان واليدان كل منهما مختلفان وإن كان ذلك الاختلاف في ظاهره يبدو قليلاً.

كذلك فإن الحقيقة التي لا تقبل الجدل هي أن أصابع اليد الواحدة لأي إنسان تكون متباينة، فكل إصبع منها يختلف في هيئته عن بقية الأصابع الأخرى. بل إنه إذا أمعنا النظر وتحرينا الدقة في أصابع اليد الواحدة فإننا نجد بها تباينًا عجيبًا ودقيقًا يدل على عظمة الخالق عز وجل، وهذا التباين يكمن في بصمات تلك الأصابع، حيث لكل إنسان بصمات فريدة ومتميزة لايمكن أن تتطابق مع غيرها من البصمات الأخرى لأي إنسان آخر وإن كان أخًا توءمًا له. والأغرب من ذلك أننا لو أخذنا بصمة أحد الأصابع لإنسان ما فإنها لا يمكن أن تطابق بصمات ما يقابل ذلك الإصبع في أيدي البشر جميعًا. ولذلك فيُعتمد على البصمات بموثوقية كبيرة ومؤكدة في إجراء التحقيقات الجنائية، حيث توصل العلماء وخبراء البحث الجنائي إلى إمكانية رفع البصمات بأجهزة دقيقة وحساسة من أماكن وقوع الجرائم لمعرفة الجناة والتأكد من شخصياتهم. إن الإعجاز الإلهي في تحقيق التباين بين بصمات البشر جميعًا إنما يدل على عظمة الخالق وقدرته.

يقول الله في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس، آية ٦]. فالاختلاف قائم بدرجات متفاوتة بين المخلوقات الكونية جميعها. فبجانب ما يوجد بين الجنس البشري من تباين فهناك اختلافات أيضًا بين جميع الكائنات الحية الأخرى، فالتنوع في عالم الحيوان لا حدود له، والتنوع في

عالم النبات لايمكن حصره، مضافًا إلى ذلك فإن عالم الجماد يضم كمًا هائلاً من المفردات ذات الطبيعة المتباينة. إن كل ما يقع عليه البصر من أشجار في بيئات متعددة لايمكن أن نجد من بينه على الإطلاق شجرتين غير مختلفتين، بل إنه من المستحيل أن نجد في فصيلة النوع الواحد منها شجرتين متماثلتين. ولو نظرنا إلى أي شجرة عارية من الأوراق في فصل الخريف فإننا ندرك مدى ما بين فروعها وأغصانها من تباين، حيث التنوع يكون واضحًا في أشكالها وأحجامها واتجاهاتها. وإذا ما جمعنا كل محصول البطاطس في مزرعة كبيرة فإننا لا يمكن أن نجد من بينها ثمرتين متماثلتين تمامًا في الشكل أو الحجم، وإنما لابد وأن نجد بينها تباينًا وإن كان ذلك التباين بدرجة طفيفة. وبالقياس على ذلك نجد أن التباين موجود في كل الوجود فانعكست فائدته العظيمة على الكائنات الحية وهذا من فضل الله على مخلوقاته ليتحقق لها سهولة التكيف مع متطلبات الحياة.

مفهـوم التبايــن

يُقصـد بالتبـاين وجـود فارق أو اختلاف أو تفاوت أو تضاد في صفة مشتركة بين عنصرين أو أكثر، فإذا كان لدينا مكعبان من البلاستيك حجم الأول ضعف حجم الثاني فإن ذلك يعني أن هناك تباينًا بين المكعبين في صفة مشتركة بينهما وهي الحجم. وكذلك إذا كان لدينا ثلاث قطع من الخشب طول الأولى ضعف طول الثانية، وطول الثانية يزيد على طول الثالثة بقليل فإن ذلك يعني أن هناك تباينًا بين القطع الخشبية الثلاث في صفة مشتركة وهي الطول. وليس بالضرورة لإحداث التباين أن تكون درجات الاختلاف بين الأشياء كبيرة «فأينما توجد اختلافات، فلابد أن يكون هناك تباين.» [١، ص١٥]

مظاهر التباين

يوجد التباين أينما توجد الاختلافات بين الأشياء، إنه يكمن في جميع المظاهر الكونية على اختلاف أشكالها، حيث نراه واضحًا في الصفات المادية وغير المادية للأشياء. فهناك الناعم والخشن، والخفيف والثقيل، والواسع والضيق، والقصير والطويل، والغائر والبارز، واللين والصلب. إننـا نستطيع أن نميّز بين الأصوات المختلفة من حيث النوعية والشدة والمصدر، ونستطيع أن ندرك أيضا الفوارق في الروائح والاختلاف في المذاق، والإحساس

بشدة الحرارة، وهبوب الرياح، وشدة الضوء، ونصوع الألوان، وغير ذلك من الصفات التي لا حصر لها. بل إننا بملاحظة سلوك بعض الأفراد في مواقف متعددة يمكن تقدير ما يوجد بينهم من تباين في بعض الصفات المعنوية كالكرم والشجاعة والصدق والإخلاص في العمل، والمواظبة والانضباط، وكذلك ما يرتبط بشخصياتهم من ميول واتجاهات.

ولكل صفة من الصفات السابقة وغيرها نقيضان يمثلان أدنى وأقصى مستويين لتلك الصفة، فأدنى درجة في النعومة تعتبر نقيضا لأقصى درجة في الخشونة، وبين النقيضين في كل صفة توجد الكثير من المستويات الوسط لتلك الصفة والتي تكون متدرجة في القوة أو الشدة. وهذا يشير إلى التنوع اللانهائي في مظاهر التباين على اختلاف مستوياته.

نسبية التباين

إذا كان المقصود بالتباين وجود فارق أو اختلاف بين عنصرين أو أكثر في صفة مشتركة بينهما، فإن ذلك لا يعني أن الاختلاف الناتج عن وجود التباين بين صفات الأشياء يكون بدرجة واحدة، وإنما يكون بدرجات متفاوتة، ذلك لأن التباين في حقيقته هو عملية نسبية، فحجم الأسد يعتبر صغيراً بالنسبة لحجم الفيل، ولكن حجم الأسد يعتبر في الوقت نفسه كبيراً بالنسبة لحجم الثعلب. كذلك فالعمر الزمني لأي رجل يعتبر أصغر من عمر أبيه، ولكن إذا ما نُسب عمر ذلك الرجل إلى عمر ابنه فإنه سيكون أكبر منه.

وإذا أمعنا النظر في العالم المادي من حولنا فإننا نجد أن لكل عنصر من عناصره المختلفة ملمسًا سطحيًّا معينًا، والملامس السطحية في الكون لا نهائية التنوع، وهي لا تخرج عن إطار الملمسين الناعم والخشن وما بينهما من درجات. ولما كانت الملامس السطحية تتدرج بوجه عام من النعومة إلى الخشونة فإن ذلك يعني أن كل درجة من هذه الدرجات لابد وأن تسبقها درجة أنعم منها وتليها درجة أخرى أخشن منها، أي أن الدرجة الواحدة من الملامس السطحية قد تتسم بالخشونة إذا نُسبت إلى درجة أخرى أنعم منها، وهي في الوقت نفسه تتسم بالنعومة إذا نُسبت إلى درجة أخرى أخشن منها، وهذا ما يقصد به من نسبية التباين بين صفات الأشياء.

مستويات التباين

إن ارتباط النسبية بتقدير درجات الاختلاف بين الأشياء قد جعل للتباين مستويات متفاوتة من حيث الشدة أو القوة، والجدير بالذكر أنه لا توجد حدود واضحة وثابتة تبين بداية كل مستوى ونهايته بحيث نستطيع أن نُرجع أي درجة من درجات التباين إلى ما يقابلها في الشدة من تلك المستويات وإنما يتم ذلك الأمر بشكل تقديري. ويمكن تصنيف مستويات التباين إلى ما يلي:

التضاد

يصل مستوى التباين بين عنصرين إلى درجة التضاد إذا حدث بينهما تباعد شديد نتيجة لوجود فارق كبير في الصفة المشتركة بينهما، فإذا كان (ا)، (ب) خطين معلومين متساويين عرضًا وأن طول الأول ٢٠سم وطول الثاني ٨ سم فإن التباين بينهما يكون قويًّا أو شديدًا لأن الفارق بينهما كبير.

التوافق

يصل مستوى التباين بين عنصرين إلى درجة التوافق إذا حدث بينهما نوع من التقارب نتيجة لعدم وجود فارق كبير في الصفة المشتركة بينهما، فإذا ما تغير طول الخط (ب) ليصبح ١٨سم بدلاً من ٨سم كما كان في الحالة السابقة مع ثبات طول الخط (ا) كما هو ــ ٢٠سم ــ فإن التباين في هذه الحالة يكون ضعيفًا لأن فارق الطول بين الخطين قليل، ولذلك فإن العلاقة بينهما تكون أقرب إلى التوافق منها إلى التضاد.

التشابه

يصل مستوى التباين بين عنصرين إلى درجة التشابه إذا كان التقارب بينهما شديدًا نتيجة لوجود فارق ضعيف جدًّا في الصفة المشتركة بينهما، فإذا كان طول الخط (ا) هو ٢٠سم وكان طول الخط (ب) هو ١٩,٥سم فإن التباين بينهما في صفة الطول يكون ضعيفًا جدًّا بل يكاد أن يكون منعدمًا، ولذلك فإن العلاقة بين الخطين (ا)، (ب) في هذه الحالة تكون أقرب إلى التشابه منها إلى التوافق.

التطابـــق

يصل مستوى التباين بين عنصرين إلى درجة التطابق إذا انعدمت الفوارق في الصفة المشتركة بينهما، فإذا كان طول كل من الخطين (ا)، (ب) يساوي ٢٠سم فإن التباين يكون منعدمًا تمامًا لأنه لا يوجد بينهما أي فارق في الطول، ولذلك فإن العلاقة بينهما تصبح علاقة تطابق وبالتالي فإن التباين في هذه الحالة غير قائم.

ويمكن تحديد نوعيـة العلاقـة بين مستويات التباين السابقة بصورة أخرى من خلال دراسة الشكل رقم ١ وهو عبارة عن ثمان تأثيرات ظلية متدرجة [٢، ص٧٢]، تمثل الدرجة الأولى منها أفتح تلك الدرجات بينما تمثل الدرجة الثامنة أغمقها.

ـ العلاقة بين الدرجتين الظليتين (١)، (٨) هي علاقة تضاد لأن الفارق بينهما في الدرجة الظلية كبير فهُما يمثلان طرفي التدرج.

ـ العلاقة بين كل درجتين زوجيتين متتاليتين مثل (٢، ٤)، أو (٤، ٦) وكل درجتين فرديتـين متتـاليتين مثل (١، ٣) أو (٣، ٥) هي علاقة توافق لأن كل درجتين من تلك الدرجات متقاربتان في الدرجة الظلية.

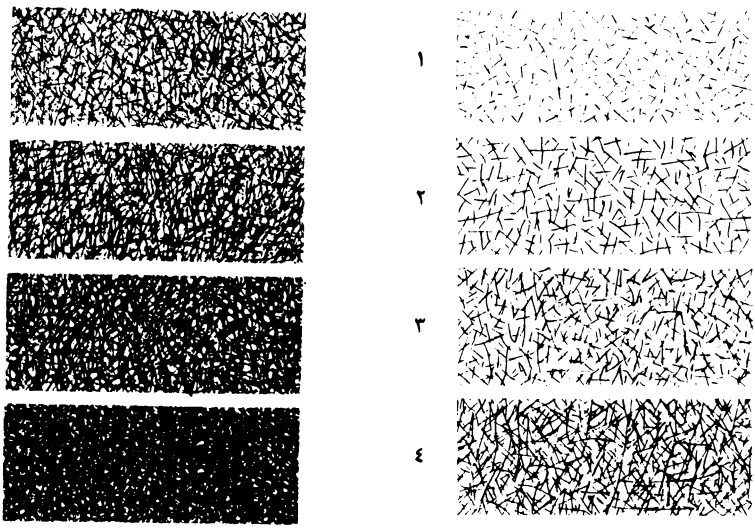

شـــكل رقم ١. تأثيرات ظلية متدرجـة.

ـ العلاقة بين كل درجة ظلية والدرجة التي تليها هي علاقة تشابه لأن درجة التقارب قوية بين كل درجتين من تلك الدرجات، فالدرجة (١) متشابهة مع الدرجة (٢) والدرجة (٥) متشابهة مع الدرجة (٦) وهكذا.

ـ أما العلاقة بين أي درجة من الدرجات الثماني ودرجة أخرى مماثلة لها فهي علاقة تطابق لأن الفارق في الدرجة الظلية منعدم بين كل درجتين منها.

ومن الملاحظ أن شدة التباين بين أي درجتين من الدرجات الظلية السابقة تتناسب تناسبًا طرديًّا مع المسافة بينهما، فالتباين شديد بين الدرجتين الظليتين (١)، (٨)، بينما تقل درجة ذلك التباين تدريجيًّا بين الدرجتين (١)، (٧) ثم الدرجتين (١)، (٦) وهكذا.

قياس التباين وتقديره

من السهل أن نقيس درجات التباين بين العناصر المختلفة قياسًا موضوعيًّا يتسم بالدقة والثبات وذلك عند التعامل مع الصفات التي يمكن إخضاعها لعملية القياس الكمي، فنحن نستطيع أن نحدد بدقة الفرق بين أطوال الأشياء وأوزانها وأحجامها ومساحاتها، كذلك فمن السهل علينا حساب الزمن وتقدير السرعة وقياس شدة التيار الكهربائي ودرجات الحرارة والبرودة والضغط الجوي. كل ذلك وغيره يمكن التوصل إليه باستخدام أجهزة القياس المعروفة والتي وصلت في عصرنا الحاضر إلى درجات عالية من الكفاءة، فهي تعطينا نتائج دقيقة وثابتة وبالتالي فإنه يمكن الاعتماد على تلك الأجهزة في قياس درجات التباين بين الأشياء قياسًا كميًّا موضوعيًّا.

ولكن هناك بعض الصفات لايمكن إخضاعها للقياس الكمي مثل الصفات المعنوية كالكرم والشجاعة والوفاء، وكذلك الصفات العاطفية والانفعالية كالحب والكراهية والخوف والقلق والفرح والحزن وغيرها. وفي مجال الفن نحن لا نستطيع أن نحدد بدقة كم تكون درجة التباين بين سطحين مختلفين في الملمس، كما أننا لا نستطيع أيضًا أن نحدد بدقة كم

تكون درجة التباين بين خطين مقوسين مختلفين في شدة التقوس، كذلك فإننا لا نستطيع قياس درجة التباين وتحديدها بشكل دقيق بين المساحات الظلية أو المساحات اللونية، ذلك لأن دراسة الفن تنتمي إلى مجال العلوم الإنسانية، ذلك المجال الذي تخضع غالبية معايير الحكم فيه على الأمور إلى التقدير الذاتي، ومن المعروف أن اللجوء في الحكم على الأمور إلى التقدير الذاتي يعطي نتائج غير موضوعية لا تتسم بالدقة والثبات. فالأحكام الذاتية على الأمور لا تستند إلا على وجهات النظر الخاصة، ويترتب على ذلك تعدد النتائج واختلافها عند الحكم على الظاهرة الواحدة من قِبل مجموعة من المحكمين وهذا عكس ما يحدث عند إخضاع أي ظاهرة للقياس الكَمي. وعلى الرغم من ذلك فإن عين الفنان المدربة تستطيع أن تقدّر درجة التباين بين الأشياء في مجال الفن تقديرًا يقترب إلى حد بعيد من الموضوعية دون الاعتماد على القياس الكمي.

أهميـــة التبايـــن

١ ـ تحقيق عملية الإدراك البصري في المجال المرئي

يؤثر التباين بشكل أساسي ومباشر على عملية إدراكنا البصري للأشياء، فنحن ندرك الهيئات أو الأشكال عندما يكون هناك اختلاف بينها وبين المجال المرئي الذي توجد فيه، ومن الطبيعي أن تؤثر شدة ذلك التباين على درجة وضوح الرؤية لما تقع عليه أبصارنا من أشكال. وعملية الإبصار لا تتم إلا بوجود الضوء، حيث لا إدراك للمرئيات في معزل عنه، فإذا دخلنا غرفة معينة وليس لدينا معرفة سابقة بمكوناتها أو ما تحتوي عليه من أشياء وكانت تلك الغرفة معتمة اعتمامًا كاملاً أي معزولة تمامًا عن أي مصدر ضوئي، فإننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نستدل بالإدراك البصري وحده عن أي شيء من مكوناتها. أما إذا كانت تلك الغرفة مضيئة فحينئذ يكون من السهل علينا أن ندرك كل شيء فيها وأن نتعرف على محتوياتها. ولكن هل ندرك في هذه الحالة كل مكونات الغرفة بدرجة واحدة؟ إننا لو أدركنا تلك المكونات بدرجة واحدة فإن ذلك يعني أنه لا تباين بينها وعندئذ ستكون هناك صعوبة في تحقيق عملية الإبصار الجيد الذي ييسر إدراك الأشياء والتمييز بين هيئاتها المختلفة. إن إدراكنا لمحتويات الغرفة وهي مضيئة لا يتم بدرجة واحدة حيث يؤثر في ذلك

مصدر الضوء وطبيعة أسطح تلك الأشياء من حيث خواصها العاكسة للمؤثرات الضوئية. ولذلك فإنه من الصعب أن نتعامل مع أي مجال مرئي لا تباين بينَ مكوناته.

٢ ـ تيسير وظائف الحواسّ الخمس

يتصل الإنسان بالعالم الخارجي عن طريق الحواسّ الخمس، فهي الوسيلة الوحيدة التي تحقق له ذلك الاتصال وتساعده في تحقيق سهولة التعامل والتكيف مع الحياة. وقد جعل الخالق عز وجل لكل حاسة من تلك الحواس وظيفة أساسية تؤديها كالسمع والإبصار واللمس والشم والذوق. وفي غياب التباين عن المظاهر الكونية المختلفة لا تؤدي أي حاسة من الحواس الخمس وظيفتها الطبيعية كما ينبغي، فلو تخيلنا أنه لا فوارق بين ما يتعامل معه الإنسان من أصوات، بمعنى أنه لا يوجد أي درجة من التباين بين ما تستقبله أذنه من تلك الأصوات فإن ذلك يلغي تمامًا الوظيفة الأساسية للأذن حيث جعلها الله مهيأة لاستقبال الأصوات المختلفة والتمييز بينها من حيث الشدة والدرجة والاتجاه، ولذلك فإن وجود التباين في الأصوات ضرورية لتحقيق وظيفة الأذن في تيسير تعامل الإنسان مع متطلبات الحياة. وبالقياس على ذلك فإن وجود التباين في المظاهر الكونية المختلفة ييسر لبقية الحواس تأدية وظائفها على الوجه الأكمل.

٣ ـ تنمية القدرة على دقة الملاحظة وإدراك العلاقات

إن وجود التباين كظاهرة طبيعية لا يخلو منها أي جانب من جوانب الحياة تحتم على الإنسان أن يتعامل بشكل دائم مع تلك الظاهرة من خلال ما يقوم به من أنشطة مختلفة في حياته اليومية. وكلما زادت خبرات الإنسان بالأمور الحياتية ازداد تعامله مع ما فيها من صور متعددة للتباين، الأمر الذي يسهم في تنمية قدرته على إدراك العلاقات بين الأشياء والدقة في ملاحظة ما يوجد بينها من تفاوت أو تقارب، لأن قوة الملاحظة عند الإنسان لا تنمو إلا من خلال محاولاته المستمرة للكشف عما يوجد بين الأشياء من تباين.

٤ ـ تقدير صفات الأشياء والحكم على مستوياتها

إن تقديرنا لصفات الأشياء وحكمنا على سماتها ليس حكمًا مطلقًا وإنما هو حكم نسبي، فوصف الشيء بأنه طويل لا يتم إلا بمعرفتنا السابقة لأشياء أخرى أقصر منه.

ووصف الشيء بأنه خفيف لا يتم إلا بمعرفتنا السابقة لأشياء أخرى أثقل منه، وهكذا الأمر حينما نصف الأشياء بالكبر أو الضخامة أو الصلابة أو القوة أو النعومة أو البرودة وغير ذلك من الصفات التي لا حصر لها فإن الحكم عليها لا يتم إلا بعد أن نُنسب كل صفة منها لأشياء أخرى تحمل الصفة نفسها بدرجات متباينة، وبالتالي نستطيع تقدير مستوى تلك الصفة بالنسبة لغيرها سواء أكانت تتفوق عليها أو تقل عنها في الدرجة. ولذلك فإن هذا التقدير يتطلب الرجوع إلى خبراتنا السابقة ومعرفتنا بالمستويات المتباينة لكل صفة، لأنه إن لم تتوافر لدينا تلك المعرفة بمستويات التباين في الصفات المراد تقديرها والحكم عليها فإن عملية الحكم لا يمكن أن تتحقق بشكل جيد.

٥ ـ تحقيق سهولة التمييز بين مكونات المجال المرئي

لّما كان لكل عنصر من المخلوقات الكونية شكل خاص قد جعله الله متباينا عن غيره من العناصر الأخرى فقد ترتب على ذلك الأمر تيسير سبل الحياة، فأينما يكون الإنسان يجد مجالاً قد تباينت مكوناته أو عناصره، ذلك التباين قد يكمن فيما بين تلك العناصر من اختلافات في الشكل أو اللون أو الحجم أو الملمس السطحي وغير ذلك، وهذه الاختلافات وغيرها تحقق للإنسان سهولة التمييز بين الأشياء وسرعة الاستدلال عليها في وقت قصير وبالتالي يمكن التعامل مع الأشياء المختلفة بيسر. فأي صيدلية عامة تشتمل على عشرات الآلاف من علب الأدوية، وبجانب التنظيم العام المتعارف عليه لوضع الأدوية وترتيبها بالصيدليات فإن وجود التباين بين تلك العلب في الشكل واللون والحجم يجعل من السهل على الصيدلي أن يستدل على أي دواء يطلب منه من بين ذلك الكم الهائل من الأدوية في زمن يسير ودون مجهود يذكر.

٦ ـ تحقيق الشعور بالقيم الجمالية في المدركات الحسية

بجانب ما يؤديه التباين من أهمية وظيفية للكائن الحي تساعده في تيسير سبل التكيف والتعامل مع متطلبات الحياة، فإنه يحقق للإنسان الشعور بما أودعه الله في المدركات الحسية من قيم جمالية مختلفة. ولكي يتحقق للإنسان ذلك الشعور فإن التدبر في مخلوقات الله والتمعن في كل ما يقع عليه بصره من مدركات ومحاولة كشف ما بينها من تباين إنما هو بداية

الـطريق للوقـوف على مواطن الجـمال فيها. وبذلك فإنه يصبح قادرًا على التذوق فتنمو أحاسيسه ويرقى وجدانه، وبالتالي يتحقق للإنسان أسمى هدف يمكن أن يسعى إليه ألا وهو زيادة الإيمان بقدرة الخالق رب العرش العظيم.

تطبيقـات عمليـة لظاهـرة التبايــن

منذ بدء الخليقة والصراع قائم بين كثير من الكائنات الحية من أجل البقاء، فالقوي منها يحاول بسط سلطانه على الضعيف والسيطرة عليه بل الفتك به أحيانًا. ولذلك فقد زود الله مخلوقاته الضعيفة بأسلحة خفية تستخدمها عندما تشعر بخطر يهددها، فجعلها تملك القدرة على الإخفاء والتمويه، حيث تستطيع أن تغيّر من أشكالها وألوانها عندما يتطلب الأمر ذلك لتصبح قريبة الشبه بالمجال المرئي الذي تعيش وتوجد فيه بحيث يصعب على أعين الأعداء اكتشاف أمرها. وحينما تتشابه أشكال تلك الكائنات وألوانها مع المجال المرئي الذي توجـد فيه فإن ذلـك يعني أن التباين بينهما يكون ضعيفًا مما يؤدي إلى صعوبة رؤيتها أو الاستدلال عليها.

ولعل أكثر الكائنات الحية قدرة على التمويه هي الحرباء، حيث تستطيع بقدرة الخالق أن تتلون بسرعة كبيرة لتلائم المجال الذي توجد فيه، فإن وقفت على جذع شجرة نجدها وكأنها جزء منه، وإن استقرت فوق تربة رملية صفراء أو تربة طينية سوداء أو فوق مسطح من النباتات الخضراء نجدها قد تلونت بلون يقترب إلى حد بعيد من لون البيئة التي تحيط بها.

ويوضح الشكل رقم ٢ حشرة عجيبة [٣] قد جعل الخالق شكلها يقترب في مظهره المرئي من طبيعة أوراق الأشجار، مما يساعدها كثيرًا في تحقيق عملية الإخفاء والتمويه، فهي إذا أحست بخطر يهدد حياتها نجدها تقف ساكنة على فرع شجرة مورقة فتصبح وكأنها جزء منه، وتستمر هكذا دون حركة إلى أن تشعر بالأمان وتتأكد من زوال الخطر فتتحرك كيفما تشاء تطير وتتنقل من مكان لآخر وتسعى في الأرض كبقية الكائنات الحية.

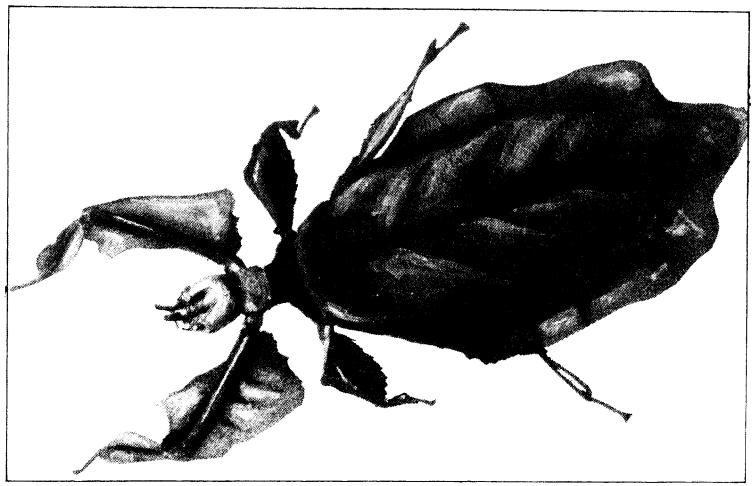

شكل رقم ٢ . حشرة تتشابه في شكلها مع أوراق الأشجار.

إن تزويد الخالق لبعض الكائنات الحية بالقدرة على الإخفاء والتمويه إنما هو جانب من رعاية المولى عز وجل لمخلوقاته المختلفة مهما كانت ضعيفة في نظر الآخرين. وعملية التمـويه التي تقوم بها تلك الكائنات تعتمد أساسًا على إضعاف درجة التباين بينها وبين الوسط الذي توجد فيه بحيث تصبح الاختلافات في المظهر المرئي بينهما قليلة وبالتالي فإنه يصعب على أعداء تلك الكائنات اكتشافها أو الاستدلال عليها بسهولة. كما يوضح الشكل رقم ٣ مجموعة من الفراشات تتقارب في أشكالها مع أوراق بعض النباتات مما يحقق لها سهولة الإخفاء والتمويه كلما تطلب الأمر ذلك.

ولم تكن ظاهـرة الإخفـاء والتمويه التي زود الله بها بعض الكائنات الحية كوسيلة دفاعية عن النفس بعيدة عن تفكير الإنسان، فقد استفاد منها هو الآخر إفادة كبيرة حيث قام بتوظيفها في كثير من مجالات الحياة، ففي المجال العسكري رُوعي أن تكون ملابس الجنود أثناء الحرب بلون يتشابه مع الألوان السائدة لأرض المعركة، بل رُوعي ذلك أيضًا في ألوان الأسلحة والمعدات والسيارات وغيرها بهدف التقليل من درجة التباين بين المظهر المرئي للجنـود ومـا يستخـدمونه من معدات حربية وبين طبيعة الأرض التي يوجدون عليها أو

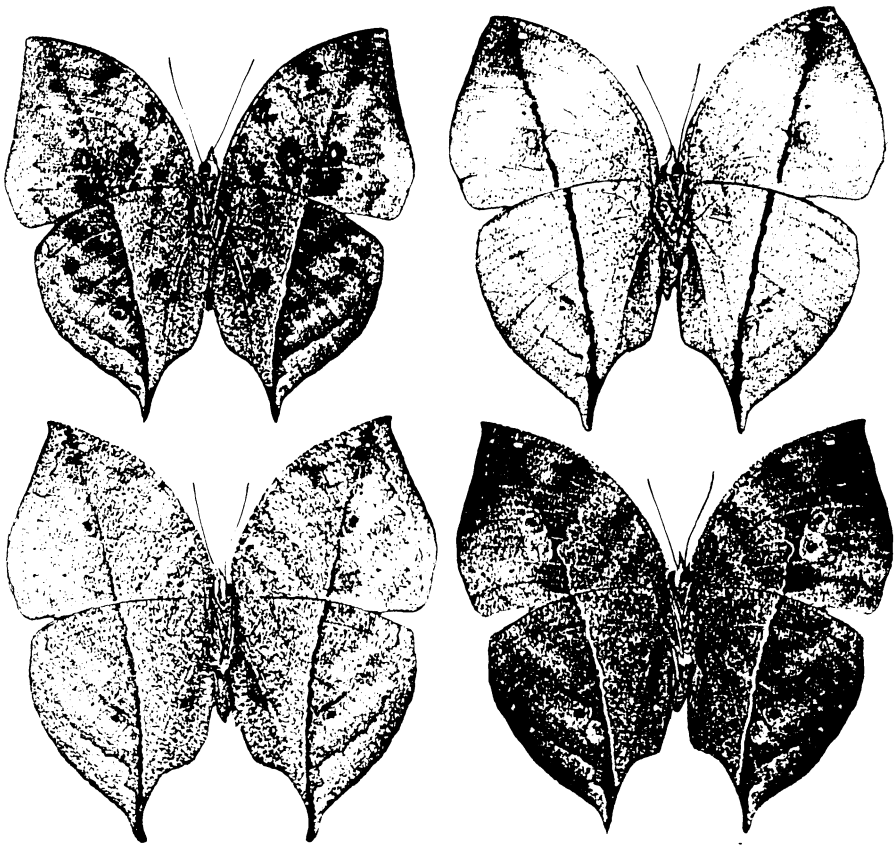

شكل رقم ٣. مجموعة من الفراشات تتقارب في أشكالها مع أوراق بعض النباتات.

يحاربون فيها، الأمر الذي يمكّنهم من مفاجأة العدو بالهجمات غير المتوقعة دون أن يكتشف من أمرهم شيئًا أو يستدل على أماكن وجودهم، وبذلك يكونون أكثر أمنًا وأقل من عدوهم في نسبة الخسائر بين الأرواح والمعدات، وبالتالي يستطيعون إحراز الفوز وتحقيق النصر.

وفي مجال المطبوعات المختلفة تُكتب العناوين الرئيسة والفرعية بشكل يغاير نوعية الحروف المستخدمة في طباعة المادة الكلامية للموضوع المكتوب وهذا ما نراه واضحًا في الصحف اليومية والمجلات والكتب والنشرات وغير ذلك من المطبوعات الأخرى. ففي الصحف نرى عناوين المقالات والتحقيقات الصحفية تظهر بشكل متميز من حيث الكبر

أو الشكل أو الوضع أو اللون وفقًا لأهمية تلك العناوين مما يحقق نوعًا من التباين بينها وبين الطبيعة المرئية لنوعية الحروف المستخدمة في طباعة تلك الصحف. وفي الكتب أيضًا نجد التباين قائمًا بين عناوين الأبواب والفصول وكذلك العناوين الجانبية أو الفرعية وبين نوعية الحروف المستخدمة في طباعة تلك الكتب. وتظهر أهمية هذا التباين للقارىء بصفة عامة وللطالب بصفة خاصة عندما يتعامل مع الكتب الدراسية بالمراحل التعليمية المختلفة في كونه يحقق له سهولة كبيرة أثناء القراءة ويقلل من جهده المبذول في الحصول على المعلومات والمفاهيم وييسر له عملية التناول البصري للموضوع والإلمام الفكري بجوانبه الرئيسة فيتمكن من سهولة التركيز والفهم والاستيعاب، وبالتالي يستطيع تذكر المعلومات واسترجاعها في زمن قصير.

ويُستفاد من ظاهرة التباين بصفة أساسية عند إعداد الرسوم المستخدمة في تنمية القدرة على دقة الملاحظة، وخاصة تلك الرسوم التي تخاطب الناشئة من الأطفال والشباب، وعلى صفحات الكثير من مجلات الأطفال نجد أنواعًا مختلفة من تلك الرسوم ومن أمثلتها:

ـ شكل رقم ٤. وهو عبارة عن رسمين متشابهين إلى حد بعيد في المظهر المرئي العام [٤، ص٤٦] مما قد يجعل المشاهد يعتقد منذ الوهلة الأولى أنهما متطابقان تمامًا ولا يوجد بينهما أي اختلافات. ويرجع ذلك الاعتقاد إلى أن درجة التباين بينهما ضعيفة، ولكن حقيقة الأمر هي غير ذلك حيث توجد بين الرسمين خمسة اختلافات أو فوارق يطلب من المشاهد محاولة الاستدلال عليها واكتشافها بشكل محدد وهذا يدعوه إلى عقد مقارنة دقيقة بين مكونات الرسمين حتى يتوصل إلى أوجه الاختلافات بينهما.

ـ شكل رقم ٥. ويمثل نوعًا آخر من تلك الرسوم، فهو يحتوي على خمسة نباتات مرقمة [٥، ص٣٩]، وفي الجهة اليسرى من أعلى الشكل يوجد رسم لنبات آخر عبارة عن سلبية (نيجاتيف) لإحدى النباتات الخمسة، والمطلوب معرفة رقم ذلك النبات الذي تتطابق هيئته مع السلبية.

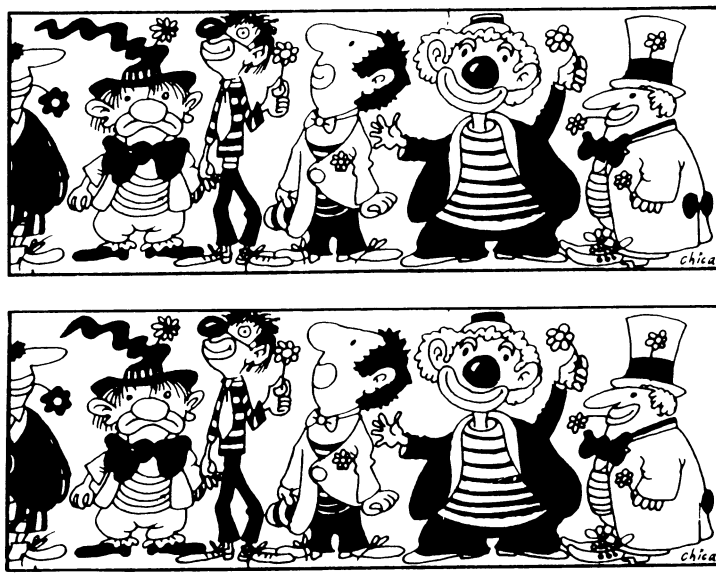

شكل رقم ٤ . من أمثلة الرسوم المستخدمة في تنمية دقة الملاحظة (المطلوب معرفة خمسة فوارق بين الرسمين).

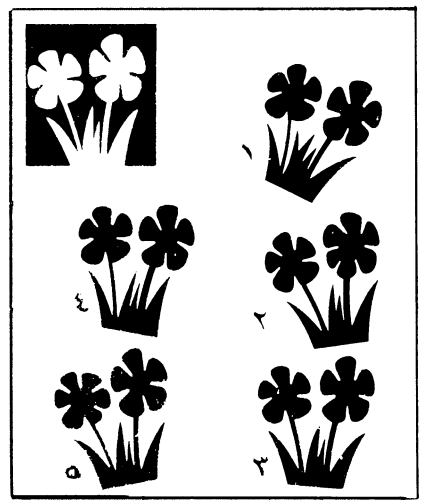

شكل رقم ٥ . من أمثلة الرسوم المستخدمة في تنمية دقة الملاحظة . (المطلوب معرفة رقم النبات الذي تتطابق هيئته مع السلبية).

ـ شكل رقم ٦ يمثل جانبًا من إحدى ملاعب كرة القدم [٦، ص١٤٥]، والمطلوب من المشاهد تحديد مَن سجّل الهدف في المرمى من بين اللاعبين الثلاثة أرقام (٨، ٩، ١٠) وذلك بالاسترشاد بالخطوط الموجودة بالرسم.

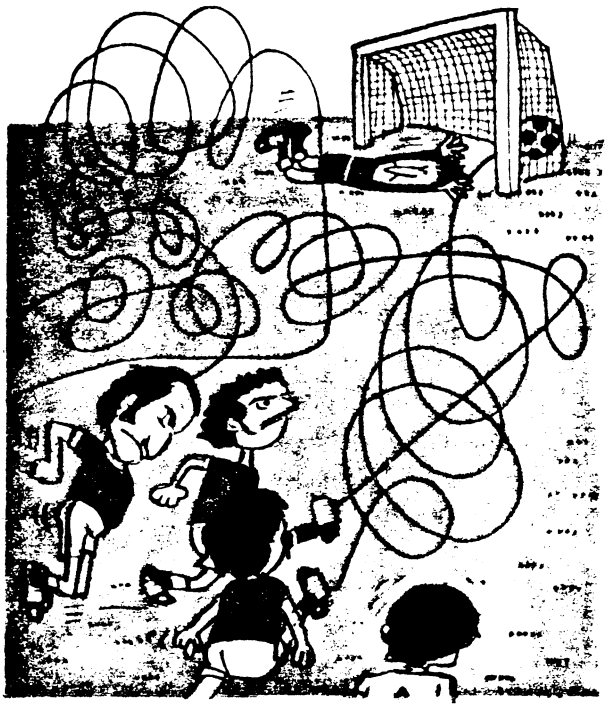

شكل رقم ٦. من أمثلة الرسوم المستخدمة في تنمية دقة الملاحظة (المطلوب معرفة من سجّل الهدف من بين اللاعبين الثلاثة).

ـ شكل رقم ٧ يمثل رسمًا بعنوان «الكلمة المفقودة» [٧، ص٤٠]، الحروف المكونة لهذه الكلمة موجودة بالمربعات العلوية من الشكل ولكنها غير مرتبة، والمطلوب الاسترشاد بالخطوط الموجودة بأسفل الحروف في توصيل كل حرف منها إلى مكانه الصحيح في المربعات السفلية حتى نصل في النهاية إلى الترتيب السليم لتلك الكلمة وبالتالي نستطيع التعرف عليها.

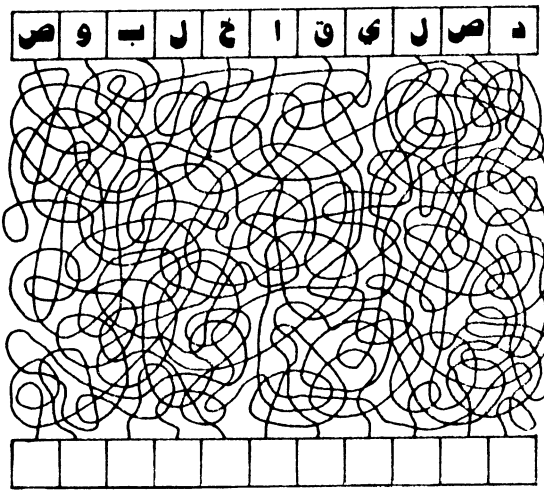

شكل رقم ٧ . من أمثلة الرسوم المستخدمة في تنمية دقة الملاحظة . (المطلوب معرفة الكلمة المفقودة) .

ومن الملاحظ أن درجة التباين ضعيفة بين مجموعة الخطوط في الشكل رقم ٧ بمعنى أن الفوارق بينها غير واضحة إذا ما قورنت بدرجة التباين بين مجموعة الخطوط في الشكل رقم ٦ ، ولذلك فإن تحقيق المطلوب في الشكل رقم ٧ يتطلب من المشاهد مزيدًا من الجهد في عملية التركيز الذهني والمتابعة الدقيقة والواعية لمسارات الخطوط . أما تحقيق المطلوب في شكل رقم ٦ فإنه لا يتطلب من المشاهد مثل هذا القدر من الجهد لأن التباين بين خطوطه ليس ضعيفًا ، وبالتالي فإنه يمكن معرفة مَنْ سجّل الهدف من بين اللاعبين الثلاثة بسهولة . ومن هنا كان التحكم في درجة التباين يشكل أمرًا مهمًا وضروريًّا في إعداد تلك الأنواع من الرسوم ، فهي تتدرج من البسيط إلى المعقد وفقًا لمستويات التباين القائم بينها حتى تتناسب وقدرات الأطفال والشباب في مراحل أعمارهم المختلفة .

تحقيق التباين في الفن التشكيلي

من المسلّم به أن التعامل مع الفن التشكيلي لا يتم إلا عن طريق الرؤية شأنه في ذلك شأن الفنون البصرية الأخرى ، واعتماد ذلك الفن على التعامل البصري يكون بالنسبة للفنان المبدع والجمهور المتلقي على حد سواء ، وإن كانت هناك بعض الحالات الخاصة

والنـادرة التي اعتمـد فيهـا بعض المكفوفين على حاسة اللمس وحدها في تشكيل بعض المجسـمات بطريقـة تتسم بالبساطة والتلقائية إلا أن ذلك لا ينفي أنه فن مرئي في المقام الأول. ولّـا كانت طبيعة الفن التشكيلي لا تخرج عن كونه فنًا مرئيًّا فإن إدراكنا البصري للعمل الفني لا يختلف عن إدراكنا لأي مجال مرئي نتعامل معه في الحياة بمختلف مظاهرها المادية، لأن العمل الفني في حقيقته كائن يدرك كغيره من المدركات الأخرى، ولذلك فإن التباين في الفن لا يختلف عن التباين في أي مدرك آخر من حيث المظهر المرئي وإن كان بينهما اختلاف واحد، ذلك أن التباين في الفن لا يتأتى إلا عن طريق الفنان فهو الذي يسعى إلى تحقيقـه عن قصـد تشكيلي يؤكد هدفه التعبيري. أما التباين في المظاهر الكونية المختلفة ــ وخاصة الطبيعية منها ــ فهو قائم كما أوجده الخالق عز وجل ولا دخل للإنسان في إحداثه أو التحكم في مستوياته إلا بالقدر اليسير الذي لا يخرج عن إطار الأشياء المصنوعة التي يهدف من ورائها تحقيق متطلبات حياته.

ولمـا كانت المفـردة التشكيلية هي وحـدة بنـاء العمل الفني، فإن التباين في الفن التشكيلي لا يتحقق إلا من خلال المفردات التشكيلية المستخدمة في بنائه. ويمكن للفنان أن يحقق التباين في المفردات التشكيلية التي يعتمد عليها في بناء عمله الفني بعدة طرق، قد يقوم بتوظيفها مجتمعة في العمل الفني الواحد، وقد يقتصر على توظيف بعض منها، وفي أحيان أخرى قد يعتمد على توظيف طريقة واحدة دون سواها، ويتوقف ذلك على طبيعة المتطلبات التشكيلية للعمل الفني من الوجهة البنائية ورؤية الفنان الخاصة في إطار الهدف التعبيري الذي يسعى إلى تحقيقه، وأهم تلك الطرق:

إحـداث التنـوع في الشكـل أو الهيئـة. وذلك بتوظيف أنواع مختلفة من المفردات التشكيلية ذات هيئات متباينة في عملية البناء التشكيلي، فالصورة التي تعتمد في تكوينها على تعدد مفردة تشكيلية واحدة كالمربع مثلاً تكون أقل تنوعًا في أشكالها من تلك الصورة التي تعتمد في تكوينها على أشكال هندسية مختلفة كالمربع والمستطيل والمثلث والدائرة وغيرها.

إحداث التنوع في المساحة أو الحجم. إذا اعتمدنا في تكوين صورة معينة على تعدد مفردة تشكيلية واحدة كالمستطيل مثلاً فإنه يمكن إيجاد التباين بين هذه المفردة عن طريق إحداث تغييرات في بعديها (الطول والعرض) وبالتالي نستطيع الحصول على عدد كبير من المستطيلات كل منها مختلف عن الآخر في نسبة الطول إلى العرض، مضافًا إلى ذلك فإنه يمكن إحداث التباين أيضًا في كل مستطيل منها على حدة عن طريق التصغير والتكبير. وما ينطبق في هذا الشأن على الأشكال ذات البعدين ينطبق أيضًا على غيرها من الأشكال ذات الثلاثة أبعاد.

إحداث التنوع في الوضع. وذلك بالتحكم في توزيع المفردات التشكيلية عند بناء العمل الفني بحيث تجمع محاورها بين الأوضاع الثلاثة الأفقي والرأسي والمائل، ولا يرتبط ذلك بالمفردات التشكيلية ذات الطبيعة المرئية المتباينة فحسب، بل يمكن تطبيق ذلك أيضًا عندما نعتمد في تكوين العمل الفني على تعدد مفردة تشكيلية واحدة. فإذا اقتصرنا في تشكيل العمل الفني على توظيف مجموعة من المربعات ذات مساحات متساوية، فإنه من الممكن تحقيق التباين بينها عن طريق التنوع في أوضاعها.

إحداث التنوع في اللون أو الدرجة الظلية. وذلك وفقًا لمتطلبات الجوانب التشكيلية والتعبيرية في العمل الفني، إذ يمكن إخضاع مكوناته إلى علاقات متنوعة من التوافق والتضاد والتدرج والتي يتوصل إليها الفنان نتيجة لخبرته في توظيف الإمكانات التشكيلية للون والدرجات الظلية.

إحداث التنوع في القيم السطحية. وذلك بإيجاد ملامس سطحية متباينة في النوع والدرجة سواء أكانت تلك الملامس حقيقية أم إيهامية، ويمكن الحصول على العديد منها كلما اتسعت دائرة البحث والتجريب عند الفنان.

إحداث التنوع في طبيعة الفراغ الناتج عن علاقة الأشكال بالأرضية. وبالإضافة إلى الطرق السابقة فإن محاولة الجمع في التكوين الواحد بين المفردات التشكيلية ذات

الطبيعة المرئية المتضادة يضيف بعدًا آخر لتحقيق التباين في الفن، كأن يجمع التكوين بين الأشكال الهندسية والعضوية، أو يجمع بين أشكال ذات بعدين وأخرى ذات ثلاثة أبعاد، أو يجمع التكوين بين الأشكال الطبيعية والمجردة، أو يجمع بين الأشكال الواقعية والخيالية في آن واحد، أو يجمع بين أنواع من الخطوط ذات طبيعة مرئية مختلفة. كل ذلك وغيره يسهم بدرجات متفاوتة في تحقيق التباين في العمل الفني. ولا يحكم كل هذه الطرق وغيرها أي نظم ثابتة أو قواعد محددة يمكن الرجوع إليها وتطبيقها عند تحقيق التباين في الفن، ولكن الأمر يرجع في المقام الأول إلى تقدير الفنان ورؤيته الخاصة.

المـراجـــــع

[١] سكوت، روبرت جيلام. *أسس التصميم*. ترجمة عبدالباقي محمد إبراهيم ومحمد محمود يوسف. القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٦٨م.

[٢] طرابية، محيي الدين. «القيم الخطية في رسم القرن العشرين وتصويره وإمكانية الإفادة منها في إعـداد معلم الـتربية الفنية.» رسالة ماجستير غير منشورة. القاهرة: كلية التربية الفنية بجامعة حلوان، ١٩٧٧م.

[٣] *رسالة الجامعة* (الرياض)، ع ٣٢٩ (١٩٨٧م).

[٤] *مجلة سامر* (بيروت)، ع ٤٠٥ (١٩٨٧م).

[٥] *مجلة هوبى* (لبنان)، ع ٢١٠ (١٩٨٥م).

[٦] *مجلة الدوحة* (قطر)، ع ١٠٣ (١٩٨٤م).

[٧] *مجلة ماجد* (أبو ظبي)، ع ١٨٠ (١٩٨٢م).

Contrast in Art and Nature

Muhyiddin Syed Ahmad Tarabeh
Assistant Professor, Department of Art Education, College of Education, King Saud University, Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. Nature is full of differences: these differences cover all the components of nature including things we see, smell or touch. The differences in our life give us a taste of contrast of things we live with. The contrast is an important element as it helps us to fulfill the process of living, and this by itself helps the human being to behave sanely and to adapt himself easily in any circumstances.

Art can be seen everywhere by everyone, and to taste and understand it, contrast should be part of it. Contrast is a very important element in every art work. The artist is the one who can clear up the contrast element and make it part of the art. The artist should also try to employ it in his work and at the end he should shape his art work in such a way that contrast is evident and could easily be noticed by anyone looking at that art work.